زيـــاد قاســـم:
راوي عمّــــان

زياد قاسم: راوي عمّان

نزيه أبو نضال
نضال الشمالي
محمد عبيد الله
صبحة علقم
إسلام القضاة
مريم جبر
سلام المحادين
منتهى الحراحشة
عدنان مدانات
ممدوح العبادي
مفلح العدوان
إيمان النواس

تقديم: حسين نشوان

تحـــــــوّلات مدينـــــــــة عمّـــــــــان
فـــي ضـــوء روايــــــات زيـــاد قاســـم

د. محمد عبيد الله *

برز اسم الروائي المرحوم زياد قاسم (١٩٤٥-٢٠٠٧) منذ بداية تسعينيات القرن الماضي، وسرعان ما عرفه النقاد والباحثون والقراء، وغدا أدبه موضع اهتمام ودراسة. وقد لفت القـراء فـي رواياته ذلك النفس الطويل الذي يذكّر بالأشكال «الكلاسيكية» المبكّرة للرواية، ويذكّر، أيضًا، بصلة الرواية الحديثة بالملحمة، وبمقدرتها على أن تكون ملحمة «المدينة» الحديثة. كما التفت القراء إلى اجتهاد زياد قاسم في تقديم جوانب حيوية من تاريخ مدينة عمان وتطورها وتحولاتها، وعلاقاتها بتحولات المنطقة بأسرها منذ أواخر العصر العثماني حتى النصف الثاني من القرن العشرين.

يؤكّد مجمل روايات قاسم، ارتباط النوع الروائي بالمدينة، ومقدرة

* أستاذ الأدب والنقد في جامعة فيلادلفيا الأردنية.

هذا النوع على التفاعل مع العناصر والمكوّنات المعقّدة في الحياة المدينية، ونربط هذا بما ذهب إليه الروائي في شهادته الموجزة في أحد ملتقيات الرواية العربية بقوله: «أزعم بأنني كاتب مديني، تستهويني المدن، بكل ما فيها من قيود واختراقات وتنظيم وفوضى ورتابة وهمجية. يدهشني امتدادها وارتفاعها وتسردبها، ويفاقم من ترددّي توتّرها، ويثير خوفي تمردها. كل شيء فيها يستحوذني(!)، ويحيرني؛ قتامتها وأنوارها. فضاؤها وأسوارها. أسطحها وقيعانها. معابدها ومحافلها. فضائلها ورذائلها. غيلانها وفرسانها. أحياؤها وأمواتها»[١].

وفي رواياته المختلفة، بدا جهده الروائي مخلصًا في التعبير عن هواجس مدينته، وفي تقديم صورة روائية لتاريخها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي، من خلال نماذج وشخصيات اختارها من بين الشخصيات التاريخية الفعلية، أو أنه رسمها رسمًا روائيًّا متخيّلًا، على شاكلة شخصيات معينة، ومن خلال هذين الضربين من الشخصيات التاريخية أو المتخيلة، صاغ رؤيته أو قراءته لتطور عمان في العصر الحديث.

عمّان القرية:

تظهر عمان بصورة قرية صغيرة في رواية (الزوبعة)، تتميز بتوفّر مياهها ونهرها أو سيلها الذي يشجّع على الاستقرار والسكنى. وتبرز الرواية استقرار الشركس في عمّان أواخر القرن التاسع عشر، بتوجيه من «الدولة العثمانية»، التي ارتبط هؤلاء بها وبحروبها في القفقاس. وعندما ارتكبت روسيا القيصرية مذابح ضد هؤلاء، ساعدهم العثمانيون في الانتقال إلى مناطق أخرى من الأراضي الشاسعة في «الامبراطورية العثمانية».

بدت (عمّان)، كما قدّمتها رواية الزوبعة، نقطة في بحر «الامبراطورية» التي تسارع تفككها بعوامل داخلية وخارجية معقدة. وقدمت الزوبعة الملاحظة التاريخية عن سُكنى

الشركس في «خرائب» عمان أواخر القرن التاسع عشر، مع شيء من التحليل الذي يكشف عن علاقتهم بالعثمانيين، وعن غاية توطينهم في هذه المنطقة التاريخية.

«كان مقصود قائدًا للفيلق الشركسي الذي وصل منطقة عمان الأثرية، واستقر فيها، بدعوة من الدولة التركية ودعمها ورعايتها. فالخسائر التي منيت بها تركيا في القفقاس خلفت وراءها آلاف المهاجرين من الشركس والشيشان الذين بقوا على ولائهم لتركيا، بدافع العقيدة الإسلامية. وتقديرًا منها لولائهم، أقطعتهم مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة على جانبي سيل عمان وجرش ووادي السير. أما السبب الحقيقي فكان رغبتها في تجنيدهم لمواجهة تمرد القبائل البدوية وعصيانها، والحيلولة دون غزواتها للتجمعات السكنية القريبة من الصحراء.فأغدقت الدولة التركية عليهم، وزوّدتهم بالأسلحة الحديثة والعتاد الكافي»[٢].

في هذا الفصل الممتع من الزوبعة، قدم قاسم استعادة تاريخية لتلك البدايات القروية التي اختلطت فيها القرية الزراعية ببقايا مهارات الفروسية والجندية. لكن الصورة الأساسية لها هي ما أضافه المهاجرون القادمون من «القفقاس» واستيطانهم في هذا الجزء البعيد عن ديارهم الأولى من العالم. وحتى اللغة الروائية عكست الوفود الطازج لهم، فعبرت الرواية عن ذلك بتضمين النص ألفاظًا وعادات شركسية، وحاولت أن تقدم حوارات تتظاهر بالعُجْمة؛ لتأكيد مرحلة البدايات، وأن الاندماج لم يحصل بعد.

على سبيل المثال، صوّرت الرواية حوار مقصود زعيم الشركس مع الشيخ زعل المقيم بجوار عمان:

«أشار مقصود في وجه الشيخ زعل وتمتم بكلمات سريعة يُفهم منها الاتهام، فترجم أحد الشراكسة إلى العربية قوله: انتو سرق شركسي بنات اتنين وولد؟»[٣]. فمقصود الشركسي هنا يتهم البدو بخطف بنتين وولد.وإمعانًا في الواقعية، حاول الروائي محاكاة الحوار الذي

لم يسلم من العجمة في تلك المرحلة المبكرة من حياة عمان الحديثة، وعلى إثر ذلك يساعده الشيخ زعل في قصّ أثر الغزاة، فالقبيلة البدوية لم تغز أحدًا، وإنما قام بتلك الغارة عصابة لصوص بقيادة «أشرف التركي» من الخارجين على القانون آنذاك.

وينتهي القرن التاسع عشر على هذه الصورة من الغزو والعلاقات الإنتاجية، القائمة على الرعي وعلى شيء من الزراعة: «وطوى القرن التاسع عشر صفحاته، بإنجازاته وعذاباته ومراراته، ليفتح القرن العشرون صفحاته على إنجازات أكبر وعذابات أكثر ومرارات أشدّ وأعنف»[٤].

بلدة عمان أوائل القرن العشرين: محطة القطار

يتزايد حضور عمان في الأجزاء التالية من «الزوبعة»، تبعًا لبروزها على الخريطة التاريخية و«الجيو سياسية»، بوصفها محطة مهمة من محطات سكّة حديد الحجاز التي شقّتها الدولة العثمانية أوائل القرن العشرين، والطامحة إلى حفظ الأمن، والوصول إلى خصوم الامبراطورية العثمانية.

تبدو عمّان مفتوحة على الاحتمالات، يسبق تطورها الوعي بحدوثه وبأسبابه، مدينة تتطور من دون تخطيط محكم، لكنه ليس عشوائيًا، وإنما معللًا بجملة الظروف التي تفاعلت معها وتكونت فيها.

تتنوع الصور السردية التي تقدمها (الزوبعة) لعمان، مرة بعين المقيمين فيها من المهاجرين الشركس والشيشان والأكراد، ومرة بعيون بعض الزائرين الذين قد تتطور زياراتهم إلى هجرة ثم إقامة..إنها أشبه بمحطة تصب فيها روافد متنوعة، أسهمت مجتمعة في تكوين الهوية العمانية المتنوعة، ثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا.

ومن الصور البارزة، ما قدّمته الرواية بعيني شخصية «صقر» البنّاء (المديني) القادم من القدس قاصدًا الشام ليأتي بأخشاب ومواد بناء لازمة لعمله ولبعض ورشه ومشاريعه التي ينفذها لصالح الإنجليز في حقبة الانتداب الإنجليزي، ونقدر أن الزمن هو العقد الثاني من القرن العشرين، قبيل قدوم الأمير عبد الله (الأول) إلى عمان واتخاذها عاصمة أو دارًا للإمارة. في تلك المرحلة مرّ صقر في طريقه بعمان، كمحطة لا بد منها لبلوغ دمشق، وكانت فرصة مواتية للرواية والروائي لرسم بعض معالم عمان ـ البلدة:

«تستحق الانتظار أربع ساعات هذه البلدة التي يسمّونها عمان. مشى عبر الشارع الترابي العريض الذي يمتد من المحطة إلى مركز البلدة. أراد أن ينظر عن كثب إلى هندسة المباني ومهارة البنّائين. لو أنه يعمل هنا لأصبح المعلّم الوحيد. إنه المتمدّن الوحيد أيضًا. حرّك طربوشه الأحمر بخُيلاء فوق رأسه. لا شيء يشير إلى التمدّن هنا سوى الإنجليز الذين تعجّ بهم الطريق، ومن حين لحين تهدر عجلات حضارتهم. عدا ذلك، فالدكاكين صغيرة وشبه خاوية، والحمير ضعيفة هزيلة تكاد تنوء من غير أحمال، وحناتير البغال لا تجد حمولة تحملها. والأهالي تتباين هيئاتهم وثيابهم. هذا إذا كان ما يرتدونه يصح أن يسمى ثيابًا. بدو وفلاحون ومدنيون. لكن هؤلاء الأجانب الذين يرتدون القلبق والأردية السوداء والجزم اللامعة يختلفون عن الباقين. إنهم أكثر ترتيبًا ونظافة، وأجمل وجهًا أيضًا. شراكسة. صحيح شراكسة. إنها المرة الأولى التي يشاهدهم فيها. أناقتهم أناقة عرسان وليس فرسان. وضع إبهامه تحت إبط (جاكيتته) وواصل المشي مزهوًّا بنفسه معجبًا بها»(٥).

وبحكم أنه بنّاء، فقد كانت فرصة للتدقيق في عمارة عمان آنذاك، بعين مهتمة مختصة، قادرة على تقديم وصف للبناء وأشكال العمارة. وهذا الاختيار في توقيت اللقطات الوصفية ومواءمتها مع الشخصية الملائمة، يذكرنا بمقدرة الروائي الراحل على بناء الرواية التاريخية ـ الواقعية بناء دقيقًا، تتكامل فيه التفاصيل المكانية مع العناصر البشرية.

«شدت انتباهه البيوت الحجرية المشادة على السفوح. التصميم القوسي للنوافذ والأبواب جميل. لكنه لن يبني مثله. القدس تعجّ بمثل هذا التصميم. سيقنع الإنجليز باعتماد التربيع والاستطالة بدلًا منها. ذلك أوفر له وللإنجليز، وأسرع للإنجاز أيضًا.

سار بمحاذاة السيل الذي تتدفق الينابيع على جانبيه. لو كانت المقاولة هنا لما كان الماء مشكلة ولا الدبش ولا الحجارة، ولا الدعامات الخشبية. ما أعلى هذه الأشجار. سبحان الله. يطعم الجوز لمن ليس له أسنان. وصل إلى طرف البلدة. حملق مأخوذًا بالمرتفع بجانبه. ما هذا؟ كيف بني السور الحجري في الأعلى؟ كيف رفعوا الأبراج هناك؟ رومان يا عمي رومان. على السفح تناثرت البيوت بين الأشجار الباسقة. من يصدق أن هناك بساتين واقفة وقوفًا. لماذا قالوا له بأن عمان محطة قطار فحسب؟؟»[٦].

وبطريقة فنية محكمة، يربط الروائي هذا المدني القادم من القدس بشخصية أخرى من شخصيات الزوبعة هي شخصية «فرحان الصليبي»، الذي يلتقيه بائعًا للملح في سوق «الحلال»، ثم تتطور معرفتهما ليبني بيتًا لفرحان في منطقة «القبّة» ذات الحضور الكثيف في الزوبعة. كما يعرّفه ببعض الشخصيات الشركسية، مقصود وخاله، وأسرتهما أيضا، فتمتد العلاقات كرًّا وفرًّا حتى تغدو جزءًا رشيقًا من علاقات عمان وتطور المنطقة، بحكم ضرورات تبادل الأعمال والخبرات والكفاءات.

عمان ما تزال قرية أو بلدة فيها ملامح زراعية ورعوية أيضًا، وإذا كان البنّاء المقدسي يرى مدينته (القدس) أرفع منها، فإنه يقارن بعض الصور التي يلتقي بها، فيتأكد من مدنية «القدس» في مقابل «قروية» عمان، وها هي أقدامه توصله إلى مكان غريب يكتشف أنه «سوق الحلال» القريب من منطقة المهاجرين، فالمدينة لا تتضمن مثل هذا السوق، وإنما هو مكان قروي ـ بدوي بامتياز:

«وجد نفسه فجأة في نهاية الطريق. امتدت أمامه ساحة عريضة طغت فيها أصوات

البهائم والطيور على أصوات الناس. هناك جمال وأبقار وحمير وأغنام. هناك أرانب ودجاج وحمام. هذا بالتأكيد سوق الحلال. دفعه الفضول إلى دخول السوق. لكن ما إن عبقت في أنفه رائحة الحيوانات وروثها، حتى أحس باختناق أنفاسه. والأهم، شعور المهانة الذي أصاب تمدّنه. استدار وهمّ بالمغادرة هربًا، عندما سمع صوتًا بجانبه: تبغي ملح؟ التفت بسرعة إلى جهة الصوت. كان فرحان يقتعد الأرض، متفيئًا بظل الجمل البارك في مواجهة الشمس. ابتسم صقر بارتباك وهز رأسه نفيًا. تفحصه فرحان من الأعلى إلى الأسفل. طربوش في سوق الحلال: عندك شي للبيع؟»(٧).

وبهذا اللقاء بدأ التعارف الطويل بين فرحان الصليبي وصقر «المقدسي». وتوثقت علاقتهما بأهلها الشركس في السنوات التالية. وفي موقف تالٍ طلب فرحان النجدة من شركس عمان، لنصرة المسلمين في دمشق، لمواجهة الفرنسيين، بخطاب وحدوي، ربما يتصادى مع الخطاب القومي السوري، يظهر فيه العرب، مقابل الفرنجة والمستعمرين والمعتدين، بصرف النظر عن أديانهم. وتظهر في هذا السياق شخصية شمس الدين الفارس الشركسي، الذي سيكون لأبنائه وأحفاده أكبر الحضور في رواية (أبناء القلعة). وهو ما يدفعنا للانتباه إلى الخريطة الواسعة التي بدأ منها قاسم، باتساع الخريطة العثمانية في الجزء الأول من الزوبعة، ثم تضييقها إلى بلاد الشام في الأجزاء التالية، ثم مع ظهور الأقطار الحديثة اتسع حضور الدولة الأردنية، وبدت عمان في قلبها، من دون قطع علاقاتها وارتباطاتها مع العواصم والمدن ذات العلاقة. لكنها غدت المركز بعد أن كانت نقطة في بحر هذه الخريطة الواسعة. هذه المقدرة على التدرج ورصد التحول، وتكييف الرواية على شاكلة التحولات التاريخية واستقلال العواصم أو بروز هوياتها، أمر يحسب لهذه التجربة الروائية المؤثرة.

شارك شركس عمان في مواجهة الفرنسيين إلى جانب جيش الملك فيصل، بعدما دعاهم فرحان الصليبي، لنجدة دمشق، في تفصيل تاريخي يكشف عن التحولات التي سعت

فيها القوى العظمى إلى تقاسم المنطقة، وفرض خريطة سايكس ـ بيكو، وانتهى الأمر باحتلال غورو دمشق واستشهاد يوسف العظمة في ميسلون في الرابع والعشرين من تموز سنة ١٩٢٠م، وآذنت بانتهاء الحكومة العربية في دمشق.

وتبعًا للاهتمام بشركس عمان، ترصد الرواية لمحات من ثقافة الشركس وعاداتهم، وعلى رأسها عادات الزواج ذات الطقوس الخاصة. ويرد ذلك، على سبيل المثال، في حادثة تزويج مقصود من نازلي، وتضمنت رصدًا قصديًّا لجوانب من العادات والتقاليد في الاحتفال والرقص والموسيقى والمشرب والمأكل، والتظاهر بخطف العروس لإتمام مراسيم الزواج بطريقة مخصوصة:

«توجهت العربات من جبل القلعة، حيث يسكن شمس الدين، إلى شارع المهاجرين. وأخرى اتجهت إلى منطقة البيادر، وعادت جميعها تحمل بنات الشراكسة للمشاركة في (الفنطزية) التي رتّبها شمس الدين على شرف مقصود. جلس الشبان في الحوش على شكل حلقة، يتحادثون ويشربون (الباخسمة)، بينما قبعت الفتيات داخل البيت يتأنقن ويتضاحكن، وبين فترة وأخرى يسرعن إلى الستائر يتلصصن على الشبان....تشكلت حلقة الرقص حوالي الثامنة، بعد أن أخذ الشبان مواقعهم على شكل نصف دائرة، يقابلها تشكيل نصف دائري من الفتيات، وعلى الطرف الآخر حامل الأكورديون يعزف ألحان (القافة). رقص مقصود مع الفتيات كافة، ولم يراقص (نازلي) إلا في الرقصة الختامية، التي اتفقا فيها على (الكواسا) وهو يكاد يطير فرحًا...بعد يومين تم التسلل. أسرّت نازلي لإحدى قريباتها بما أزمعت عليه، فجهزتها هذه بما تحتاجه من أغراض، حملتها معها إلى المكان المتفق عليه. وجدت مقصودًا وشمس الدين وامرأتين من أقاربه ينتظرون قرب الآثار، فحملوها معهم إلى بيت ميرزا باشا الذي أرسل إلى عائلة نازلي يخبرهم أن ابنتهم في عهدته، وأنها ستتزوج

مقصودًا. وكان مقصود قد أقام في بيت شمس الدين، فأدركت أمّه أنه اختطف نازلي وقضي الأمر»[٨].

يبرز هذا المقتبس الموجز بعض سمات الرواية الواقعية ـ التاريخية، من ناحية الحرص على تسمية الشخصيات واختيار الأسماء، بما يتواءم مع ثقافة الشخصية وانتمائها الاجتماعي، إلى جانب الاهتمام بواقعية اللغة الروائية، فلا مانع من حضور بعض أطياف اللهجات المحكية وبعض تنويعات الألفاظ الدخيلة التي تضاف إلى لغة المدينة مع سكانها الجدد، ويظهر ذلك من خلال الألفاظ والتعبيرات الشركسية التي استعملها، وهي إجمالًا مفهومة من السياق ولا تحتاج إلى قاموس أو معجم كي يدرك القارئ مراميها أو معانيها.

«أبناء القلعة» وتحوّلات مدينة عمان:

على طريقة نجيب محفوظ في اقتطاع حي صغير من المدينة وتقديم حكاية ممتعة من واقع مكوناته، حاول أن يفعل زياد قاسم، باختيار حي القلعة أو جبل القلعة، أحد الأحياء العمانية القديمة. وبالطريقة المكانية ـ التاريخية ـ الواقعية، عالج تلك المكونات البشرية والمكانية، وذلك عبر تأملها داخل القلعة وخارجها، فتابع حركة أهل الحي خارج حيهم، فرصد صلات عمان بالعواصم العربية الأخرى: دمشق، والقاهرة، وبغداد، وبيروت، بدرجات متفاوتة، وأساس تلك العلاقات التعليم والسياسة والتجارة.

قسم الكاتب روايته «الطويلة» إلى أربعة فصول، ينقسم كل فصل إلى أبواب مرقّمة. ولعل هذا التقسيم مما يساعد في متابعة خيوطها، وفي السيطرة على شبكتها المعقدة من الشخصيات والحوادث والتحولات.

يمتد زمان الرواية من منتصف الأربعينات أو نهاية الحرب العالمية الثانية، مرورًا بنكبة

فلسطين ١٩٤٨، وحتى العام ١٩٦٧ أي إلى نكسة حزيران. وهي مرحلة، وإن تكن قصيرة زمنيًّا، إلا أنها مليئة بالحوادث والتحولات الخطيرة في حياة عمان والأردن، والمنطقة العربية بأسرها.

إنها مرحلة نكبة فلسطين، وما عكسته على الأردن من ناحية سياسية وسكانية واقتصادية واجتماعية، وهي مرحلة ما بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ والمدّ القومي ـ الناصري الذي تبعها، ومرحلة صعود الأحزاب وهبوطها، ومرحلة الوحدة وانهيارها، والانقلابات المتتابعة المتضاربة في الأقطار العربية المجاورة.

بنى الكاتب حبكة مرتبطة بالحوادث الخارجية، لكنها تتلاءم مع «أبناء القلعة»، فطوّر عائلة شمس الدين التي مرّ ذكرها في رواية «الزوبعة»، واستأنف السرد من خلالها، وكأننا أمام جيل آخر من أجيال الزوبعة، لقد صاهرت عائلة شمس الدين أسرة فلسطينية من حيفا قبل النكبة، ثم تعرّضت الأسرة المشتركة لحادث سير مأساوي في عمان، ماتت على إثره حكمت وزوجها، وبترت ساق أختها «فوزية»، ومات شمس الدين نفسه كمدًا وحزنًا بعد شهور. أما فوزية فقدّر لها تنشئة أسرة جديدة لا يد لها في تكوينها، تتكون من أخيها فخري، ومن ابني أختها (فارس، ونايف) اللذين التحقا بخالتهما إثر النكبة: «احتضنت فوزية أبناء أختها، واحتفلت وفخري بهما، فقد قدّر لعائلة شمس الدين أن تنمو دون زوجة مثل نجاح، وقدّر لفوزية أن تصبح أمًّا دونما زواج، وقدّر لفخري أن يتحوّل من ابن وحيد إلى أخ أكبر في حكاية ابتدأت ولم تنته»(٩).

هذه الأسرة الشركسية/ الفلسطينية ضمت مجموعة من الشخصيات الأساسية في الرواية، كما ضم البيت نفسه بيت شمس الدين في جبل القلعة، أسرتين أخريين من المستأجرين: أسرة الأستاذ منصور معلم اللغة العربية، والبعثي الملتزم، وأسرة أبي وداد الذي يعمل في الصحافة. ومعنى ذلك أن هذا البيت، بطوابقه ومكانته، قد جمع العدد الأكبر

من شخصيات رواية أبناء القلعة. والشخصيات الأخرى تنتمي إلى الجيران أو المدرسة، أو السوق، إلى جانب من اجتذبتهم عمان في اتساعها ونشاطها التجاري المتسارع.

لقد حشد المؤلف عددًا كبيرًا من الشخصيات لتعكس تحولات المدينة، واقتضى منه ذلك مجهودًا استثنائيًّا؛ لأن لكل شخصية مسارها الخاص، ولها صلاتها بالشخصيات الأخرى، فكاد يصوغ لكل شخصية رئيسية رواية تامة داخل «أبناء القلعة»، واتبع طريقة شاقة في السرد، على الرغم من ظاهرها البسيط، معتمدًا أكثر اعتماده على «الراوي العليم»، الذي لا يترك صغيرة أو كبيرة إلا أحصاها. لم تساعد هذه الطريقة على «التلخيص السردي» وإنما اقتضت ضروبًا من التفصيل والإطالة، إلى جانب الشخصيات والحبكات الثانوية التي يخترعها لإحداث ضروب من الحركة والحيوية، منعًا لرتابة السرد في رواية لا ينقصها الطول.

قدّمت الرواية طبقات من الشخصيات التي تمثل ألوانًا من تحوّلات المدينة، على رأسها شخصيات التجار الذين غدا لهم حضور بارز في المدينة الجديدة، وقضى نشاطهم التجاري بسرعة على بقايا البلدة الزراعية، فاختفت منها وسائل النقل التقليدية؛ لتحل محلّها المركبات والسيارات العامة والخاصة.فالتجارة، كما يبدو، هي مفتاح التحول في عمان، إلى جانب الزيادة السكانية الهائلة بسبب الحروب والهجرات.

وفي هذا الجانب، قدمت الرواية شخصية **أنور علي**: وهو تاجر في حياته العمّانية، ينحدر من أصول فلاحية، بعدما جاء من قرية الطيرة الفلسطينية، وظلت لهجته الريفية أمارة أساسية لم تبدّلها المدينة. استفاد من بيع الإطارات في الحرب العالمية الثانية، ثم انتقل إلى عمان،ليغدو قطبًا من أقطاب اقتصادها وتجارتها، وثريًّا من أثرياء الحروب. قدمته الرواية بلهجته، وملابسه التقليدية، وتكوينه الذاتي والشخصي الغريب والمعقد، وكأنها تشير إلى المفارقة بين التطور المادي والمعنوي، فالتطور المادي والحضاري كان خاطفًا وسريعًا، لكن

التطورات الثقافية والمعنوية بطيئة بطبيعتها، في حالة أنور علي وشخصيات أخرى كثيرة، بل في حالة عمان كلها.

أما **خليل منعش**،الذي اشتقّ اسمه من مهنته ومشروباته، فطوّر صناعة المرطبات والمشروبات الخفيفة، وحاول أن ينافس في مجال «الكازوز»، ونجحت صناعته «المحلية» مدة من الزمان، حتى انهيارها تحت المنافسة غير العادلة مع شركات المشروبات الغازية الأمريكية. ويمكن أن نقرأ في صعوده وهبوطه مسألة صراع الصناعات الوطنية ومقدرتها على المنافسة مع الشركات العابرة للقارات والأسواق.

ويقترب من خليل منعش ونشاطه شخصية (أبو عبده) وهو من أصل شامي: بدأ بافتتاح «المقهى»، الذي يمثل ظهوره علامة «مدينية» جديدة، وانتقل إلى تجارة المرطّبات، بتأثير من صناعة خليل منعش الذي غدا نسيبه، وزوج ابنته (نجاح). حبكت الرواية شيئًا من تداخل الاجتماعي بالاقتصادي، والسعي إلى تحقيق مكاسب، من خلال النسب والعلاقات الجديدة.

أما حرّان: البدوي،الذي لم يجد نفسه في البيئة البدوية، بسبب لونه الذي أخذه عن أمّه، فقد وجد نفسه في عمان التي لا تميز بين الناس بسبب ألوانهم، وطوّر فضاء متسعًا لنشاطه، بدأ مرابيًا أشبه بمصرف بشري، يقرض بالفائدة، ووسّع من أعماله تدريجيًّا إلى الأعمال التجارية المتنوعة.

وكذلك حال عواد النمر، تاجر العجلات والنقليات والتخليص، ارتحل إلى عمان، واستفاد من خبرات أنطون اللبناني. وكوّن معلمًا آخر من معالم اقتصاد النقل والآليات التي تحتاجها المدينة العامرة. وفي عمله ونشاطه صورة المقاولات واقتصاد الآليات الثقيلة، وضروب متنوعة من التجارة والصناعة. إلى جانب الاستعانة بالخبرات العربية (مساعده أنطون اللبناني)، فلم تعد التجارة محلية فقط وإنما إقليمية وعالمية.

الأحزاب والأحوال السياسية:

اجتهدت الرواية في تقديم جانب مهم من عمّان الخمسينات والستينات، وذلك من خلال المسار السياسي للرواية، الذي قدم فيه الكاتب إضاءات على نشاط «الأحزاب» السياسية، مركّزًا على تجربة حزب البعث، بصورة شديدة الوضوح، وبدرجة أقل على «حركة القوميين العرب» و«الحركة الناصرية»، وعلى نشاط «الإخوان المسلمين». أما الحزب الشيوعي الذي كان نشطًا سياسيًّا ونضاليًّا آنذاك، فلم تأت الرواية على نشاطه أو نضاله.ويمكن لبيان اختلاف التقدير بين هذه الرواية وغيرها، استذكار الصورة الموسّعة التي قدّمها غالب هلسا لنشاط الشيوعيين في عمان في الخمسينات، في روايته البديعة «سلطانة».

صوّرت الرواية صعود حزب البعث ودوره النضالي واستقطابه المعلمين والطلبة، من خلال شخصية (الأستاذ منصور) المعلم، وانتماء عدد من الطلبة المتأثرين به، منهم ابنه برجس الذي استشهد في أثناء المظاهرات ضد الوجود البريطاني والمطالبة بطرد كلوب باشا، وكذلك من خلال شخصية (فارس) الذي بدا بعثيًّا كامل الأوصاف، في تجربته العمانية والدمشقية، فقد أكمل دراسته الجامعية في دمشق، وظلت تجربته السياسية مقترنة بحزب البعث، بخلاف أخيه (نايف)، الذي بدا ميالًا إلى جماعة الإخوان المسلمين، ونتيجة لذلك طرد من مصر، فعاد إلى عمان وانضم إلى سلاح الجو، وانتهى طيارًا شهيدًا، بحسب الرواية، عام ١٩٦٦. وقد استعار الروائي في هذا المقام حادثة استشهاد الطيار (موفق بدر السلطي) في معركة السموع ١٩٦٦، وهي حادثة تاريخية معروفة، وضمّنها روايته بوصفها استشهاد شخصية الطيار (الإخواني) نايف. ولسنا نعرف مقدار حرية الروائي هنا، في استعارة حادثة تاريخية حقيقية ونسبتها إلى شخص آخر، خاصة وأن موفق السلطي هو الطيار الوحيد الذي استشهد في تلك العملية، إلى جانب شهداء كثيرين من الضباط والجنود المشاة.

عكست الرواية، أيضًا، تفاعل عمان الحزبية والسياسية مع العواصم العربية وبخاصة:

دمشق، والقاهرة، وبغداد، فما يحدث في تلك العواصم يؤثر فيها، وفي توجهات أحزابها، وهكذا تأثرت بالوحدة بين مصر وسورية (١٩٥٨م) ثم بسقوط تجربة الوحدة عام ١٩٦١م، وما تبع ذلك من تمزق في الأحزاب ومن انشقاقات، تبعًا لتباين وجهات النظر السياسية، ولغياب أدوات عملية تحمل التوجهات القومية التي تبدو مشتركة بين البعث والناصرية.

وفي هذا السياق، رسمت الرواية شخصية (جورج) الذي بدأ بعثيًّا في عمان، ثم غدا ناصريًّا، في ضوء تجربة الوحدة، ثم ابتعد عن حزب البعث وانضم إلى «حركة القوميين العرب»، التي تحالفت مع التوجهات الناصرية، ودافعت عنها. وعلى الرغم من تصويره بطريقة باهرة، بوصفه شابًّا واعيًا مثقفًا متحمسًا، فقد انتهى مصيره في الرواية بدوره في تصفية ابن حيّه (مالك)، بطريقة تآمرية، بتهمة خيانة التنظيم.

صوّرت الرواية طرد كلوب باشا وقرار تعريب الجيش، ولم تخفِ دور الأحزاب والحركة الوطنية في الضغط السياسي، وصولًا إلى قناعة الملك حسين ـ رحمه الله ـ بضرورة الإقدام على هذا القرار التاريخي. ولكن تبعت هذه المرحلة مرحلة حظر الأحزاب وتصاعد القمع الأمني، والاعتقالات ضد الحزبيين، وخصوصًا بعد إقالة حكومة سليمان النابلسي، وإقالة مجلس النواب الذي أفرزها.

وبصورة مجملة، فإن الرواية السياسية في أبناء القلعة، قد عكست جانبًا مهمًا من التاريخ السياسي في عمان، لكنها شدّدت النقمة على التنظيمات الحزبية القومية، واتهمت بعضها بالاغتيال السياسي (حركة القوميين العرب)، وهجت البعثيين هجاء مرًّا، باعترافاتهم بعد اعتقالهم على أثير الإذاعة العام ١٩٦٦، من دون أن تتعمق أبعد من ذلك، لتعكس ما تعرضت له التجربة الحزبية من تخريب وتعذيب على يد السلطات الرسمية، التي لم تتح لتلك التنظيمات أن تتطور وأن تعمل في النور إلا قليلًا. ومقابلة هذه الرواية بما جاء في كثير من كتب المذكرات السياسية لشهود تلك المرحلة، يدفعنا إلى اكتشاف الكثير من الحيف

الذي لحق بالأحزاب والتنظيمات السياسية كما صورتها هذه الرواية. وأحسب أن «أبناء القلعة» قد تبنت الرواية «الرسمية» أو «الحكومية» في موقفها المرتاب من الأحزاب، ولم تتبنّ منظورًا مستقلًّا أو ديمقراطيًّا في عرض التجربة ونقدها وتحليلها. وربما يتصادى هذا مع طبيعة السارد وحيد الصوت كليّ المعرفة، الذي سيطر على السرد، بينما تحتاج الرواية «الديمقراطية» إلى قدر واسع من تعدد الأصوات وتباين المنظورات.

غابت عن «أبناء القلعة» أحداث مفصلية مؤثرة في حياة عمان، مثل وحدة الضفتين ١٩٥٠م، ثم حادثة استشهاد الملك عبد الله بن الحسين في القدس/ ١٩٥١م، ثم الحوادث المرتبطة بما سمي «تنظيم الضباط الأردنيين الأحرار»، الذي اتهمه الملك حسين، رحمه الله، بمحاولة الانقلاب، وتوقف عند رموزه وقفات طويلة في مذكراته (مهنتي كملك). كما كتب رموزه مذكرات سياسية أضاءت هذه الحوادث وقدمت روايات متعددة تستحق الاهتمام، فلا يعقل أن مثل هذه الحوادث الكبرى لم تلق بظلالها على المدينة وعلى حي القلعة.

الصحافة والفنون والسينما: وسائل الثقافة والترفيه

انتبهت الرواية إلى دور الصحافة، وقدمت عدة شخصيات ذات صلة بالصحافة المختلطة بالسياسة والثقافة، منها شخصية أبي وداد، الصحفي الذي أسس صحيفة كتب فيها الأستاذ منصور وعمل فيها فارس البعثي، ومن شخصياتها الأستاذ مصلح محرر الصفحة الثقافية غريب الأطوار.

كذلك في جانب التأريخ لتطور الفن والترفيه، قدمت الرواية شخصية فنان سمّته (لطفي عيسى)، حاول تأسيس أجواء فنية وموسيقية في المدينة، وأسس في بعض الأحيان فرقة موسيقية راقصة، لكن نشاطه الترفيهي اختلط بالنساء والقمار، فبدا «قوادًا» أكثر منه فنانًا. وفي ظلاله ظهرت شخصيات أخرى مثل الفتاة الفقيرة (سمورة)، بلثغتها الثقيلة في

السين وأخواتها، تزوجها واستدرجها إلى نشاطه المشبوه، حتى هربت منه لتعمل في نشاطها الخاص. وإلى جانب ذلك، قدمت الرواية لمحات خاطفة من نشاط دور السينما، المتمم لثقافة الترفيه الضرورية في المدينة.

ويشعر القارئ أحيانًا، أن الروائي يميل إلى تقديم الشخصيات المشوّهة، ظنًّا منه أنها أكثر جاذبية من الناحية السردية، لكن مثل هذه الشخصيات المتطرّفة في نشاطها، تقدم صورة غير عادلة أو أمينة لتطور الثقافة والفنون في مدينة حديثة كمدينة عمان، فالأستاذ مصلح، الشاعر والناقد المدّعي، لا يمثل بحال عشرات المثقفين والكتّاب الجادين الذين طوّروا الحركة الثقافية والأدبية. كما أن (لطفي عيسى) ممثل فاشل للحركة الفنية، وتقديمه بهذه الصورة المشوّهة لا يقدم الصورة الأمينة لتطور الفنون ودورها في عمان، في خمسينيات القرن الماضي وستينياته.

صورة المرأة في عمان:

قدمت رواية أبناء القلعة شخصيات نسوية كثيرة، لكنها في معظمها لا تعكس صورة المرأة التي وجدت في المدينة فضاء للتعليم والفعالية، وباستثناء فوزية التي قدمها تقديماً معنويًّا ممتازًا، برجلها الخشبية وقوتها الروحية، وقدرتها على تنشئة أسرة تكونت حولها تكوّنًا قدريًّا لا رادّ له، فإن معظم الشخصيات الأخرى كانت شخصيات مضطهدة، مغلوبة على أمرها، لا تكاد تخلو من التشويه النفسي والجسدي. وهنا نتذكر أن الرواية قدمت فوزية بصورتها الجسدية المشوّهة، ولم تعفِ امرأة واحدة من التشويه.

عانت النساء من ميل أزواجهن إلى تعدد الزوجات، طمعًا في زوجات جميلات صغيرات في السن، وهذا أحد أبرز وجوه استثمار الثروة المتعاظمة بين أيدي التجار والأثرياء، بحسب

الرواية. وأما الزوجات الجديدات فكنّ يفهمن الأمور بطريقتهن، فلا يخلو موقفهن من الاستغلال والاستثمار في مثل هذه الزيجات «التجارية».

(أم مالك) مثلًا تزوجت التاجر أنور علي، معلّم زوجها المتوفى، ثم ورثت عنه ثروات بعد وفاته السريعة، ولم تتورّع عن علاقة محرمة مع فخري الشركسي، صديق ابنها المقتول، ثم تزوجته بعد ذلك. فكثرة الزيجات والعلاقات غير الطبيعية كثيرة كثرة بالغة، تتجاوز حدود تكوين الأجواء الدرامية، إلى تقديم صورة غير أمينة لأحوال المرأة العمانيّة في خمسينيات القرن العشرين وستينياته.

ولم تعكس الرواية مثلًا اتساع التعليم، ولا الاهتمامات السياسية للمرأة العمانية، ولم تعكس شيئًا من ذلك النشاط الدائب الذي يعكسه كتاب (بنات عمان أيام زمان) لعايدة النجار، ويتعلق من الناحية التاريخية بالحقبة نفسها، لكنه قدم صورة غنية دقيقة وتقدمية، مغايرة للصورة الرجعية التي رسمتها رواية أبناء القلعة للنساء وللأحزاب والمثقفين. ويشعرنا هذا النقص بأن الروائي لم يدقق تدقيقًا «علميًّا» و«معرفيًّا» في التاريخ الثقافي والاجتماعي، وإنما رسمه وفق انطباعاته الذاتية، التي لا تخلو من سوء ظنّ بالأحزاب والمثقفين والفنانين والنساء، فرسم هذه الفئات رسمًا قاسيًا، كأن بينه وبينهم ثأرًا يريد تصفيته بهذه الكتابة العنيفة القاسية.

لقد اجتهد الروائي الراحل زياد قاسم، وقدم صورة عمان كما تخيلها، وفق رؤيته وأسلوبه، ولكن ما نؤكده في هذا المقام، أن رواياته على ما فيها من متعة سردية، ومن ملاحظات ثقافية واجتماعية واقتصادية، تؤرخ لجوانب حيوية من تحولات المدينة، فإنها قابلة للمراجعة والنقد، وإعادة التسريد برؤى مختلفة، خصوصًا مع ما أشرنا إليه من جنوحه إلى الغرابة الدرامية، والإكثار من حوادث الجريمة المصطنعة، وتصوير النخب والشخصيات بطريقة مشوّهة، مع شيء من سوء الظن بالثقافة وأهلها، انعكس كل ذلك على خياراته وطريقته في

تطوير الحوادث وبناء الشخصيات، بطريقة تبعد بها أن تكون صورة عادلة للمدينة. ولذلك فهو، في اعتبارنا، واحد من رواة عمان، ولا بد من قراءة روايته في ضوء روايات أخرى، مما كتبه روائيون مثل: غالب هلسا، ومؤنس الرزاز، وإلياس فركوح، وجمال ناجي، وهاشم غرايبة، وسميحة خريس، وقاسم توفيق وغيرهم. وكذلك ما قدمته مؤلفات السيرة الذاتية وأدب المذكرات والرحلات والأدب التوثيقي والتاريخي، وهو من أغنى المصادر التي تتفوق على الرواية، وتقدم لها مادة غنية جدًّا لو تم توظيفها بطريقة تخييلية، ومن أمثلة هذه الكتابات مؤلفات: د.عايدة النجار، ومحمد رفيع، ومحمد أبو عريضة، ووليد سليمان، وطلعت شناعة...وغيرهم. إلى جانب مذكرات كتبها سياسيون فاعلون أو أدباء ومفكرون تضيء البعد الزماني والحوادث الكبرى المرتبطة بعمان، من مثل مذكرات: ضافي الجمعاني، وشاهر أبو شحوت، ونذير رشيد، ونجمية حكمت، وعبد السلام المجالي، وأحمد الطراونة، وعبد الرحمن شقير، وعبد الرحمن منيف، وسليمان الموسى، وعيسى الناعوري، ويعقوب زيادين، وبهجت أبو غربية وغيرهم.

الهوامش

(١) زياد قاسم، من شهادته في ملتقى القاهرة الثالث للإبداع الروائي العربي (٢٠٠٥)، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨، قسم الشهادات، ص١٢٤.

(٢) رواية **الزوبعة**، ١/ ٢٠٢.

(٣) **المصدر نفسه**، ١/ ٢٠٥.

(٤) **المصدر نفسه**، ١/ ٢٠٦.

(٥) **الزوبعة**، ٢/ ٨٣.

(٦) **الزوبعة**، ٢/ ٨٣.

(٧) **الزوبعة**، ٢/ ٨٤.

(٨) **الزوبعة**، ٢/ ١٨٤-١٨٥.

(٩) **أبناء القلعة**، ص١٠.